مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 08 عدد: 05 السنة: 2019
ص: 348 - 360 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

دلالة المكان من خلال النص و النص الموازي
رواية من أكواخ القنادسة إلى أبراج نيويورك لحبيب فزيوي أنموذجا

The Indication of Place through Text and Parallel Text
A Novel from the Huts of Kenadsa to the Case Study: Towers of New York by Habib Fezioui

[*] الطاهري بلقاسم [1] د. بوشيبة بوبكر [2]

Tahri Belkacem[1] / Dr. Boubakeur Bouchiba[2]

[1] جامعة الطاهري محمد بشار / [2] جامعة زيان عاشور الجلفة

University of Bechar[1] / University of Djelfa[2]

تاريخ الإرسال: 2019/05/23	تاريخ القبول: 2019/10/19	تاريخ النشر: 2019/12/01

ملخص البحث

لقد أضحى تألق أو تضعضع الفن الروائي رهين عناصره الأساسية، كالشخصية والحدث والزمان والمكان، بفعل التقنيات الحديثة التي مدته باعا، وجعلت كل عنصر منه موضعا للبحث والتنقيب لا ينقضي الحفر فيه، ولما كان عنصر المكان أساسا ومدارا تتحلق حوله باقي العناصر فقد جاء موضوع هذا البحث دائرا في فلكه، ساعيا إلى الكشف ما أمكن عن جملة الدلالات الثاوية وراء أهم الأمكنة الموظفة عبر النص والنص الموازي لأحد النصوص الروائية بالمنطقة ممثلا في رواية: الحبيب فزيوي: **من أكواخ القنادسة إلى أبراج نيويورك**، وذلك بالإفادة ما أمكن من نظريات السرد الحديثة خصوصا ما جاء به جيرار جنيت(Gérard genette) في مجال شعرية العتبات ضمن الكثير من مؤلفاته، وبالأخص كتابه (العتبات/ Seuils).

الكلمات المفتاح : دلالة المكان ؛ النص ؛ النص الموازي ؛ الرواية.

Abstract:

The quality of the art of writing novels has become depending on one of the most important elements of the novel, such as personality, event, time and space, because of the modern technologies that have long been supporting it. In order to uncover as much as possible the whole of the connotations behind the most important places employed

[*] الطاهري بلقاسم. tahribel@gmail.com

through the text and the parallel text to one of the narrative texts in the region represented in the novel of Habib Fezioui: From the Huts of Kenadsa to the Towers of New York, using as much as possible theories of modern narratives, especially what came in Gerard Genette in the poetry of thresholds in many of his works, especially his book (Thresholds /Seuils).

Keywords: Place Indication; Text; Parallel Text; Novel.

تمهيد:

لطالما كانت الرّواية أداة للسفر عبر فضاء لغتها إلى عوالم و وقائع لم يتسن لك يوما أن تمسك بتلابيبها على أرض واقعك المعيش، فتعيَ بذلك منها ما أسعفتك مخيلتك، ويغيب عنك كثير من ثناياها وحيثياتها الحبلى بالسمات الدلالية التي من شأنها التأثير في فاعلية القراءة، فتخرج في صور من صورها متصدعة الجانب بفعل العور الذي أصابها جراء غرابة البيئة والأحداث والمعرفة بأحوال وطبائع المجتمع الذي تعكف على بسطه...، خلافا للرواية المحلية إذ تشعر وأنت تقتحم عوالمها كمن يتفقد أجزاء بيته فتدرك ماهية المكان ورمزيته وحتى صبغته ورائحته، كما تدرك معادن الناس وطبائعها، وكلها شفرات يمكن للذاكرة والواقع أن تمنحاك شيئا من رموز فكها وصولا إلى صورة من صور القراءة الممكنة، "فالأبعاد المتعددة للمكان داخل النّص وداخل الصورة الشعرية إلى جانب وظائفه الفنية وأبعاده الاجتماعية و التاريخية، والعقائدية التي ترتبط به ولا تفارقه، تختزل كثيرا من الدلالة التي تنعش وعينا بالحــوار معه،"[1]ولا يعني ذلك بأي حال من الأحوال أن فعل القراءة يتأتّى لهذه الفئة دون سواها، بل إن الأمر لا يعدو أن يكون أداة فاعلة من أدوات القراءة في إحدى صورها،" فالأماكن تتيح لك إمكانية قراءة سايكولوجية ساكنيها وطريقة حياتهم وكيفية تعاملهم مع الطبيعة"[2] فالمعرفة المسبَقة بكل هذه المعطيات ينقل القراءة إلى الإيغال حفرا في دلالات أخرى ثاوية في مضمون النّص،"علما أنّ مهما استكشف القارئ من أبعاد النّص وعناصره، مكامنه ومجاهله فإن ما سيكشفه يظل مجرد صورة واحدة من صور القراءة ولا يجوز له أن يتخذ صفة الحقيقة النقدية التي من غير العسير التسليم بها"[3] فعلى ضوء هذا تدرك الفارق في مقاربة نص من النّصوص السردية التي تتخذ بعدا مكانيا غريبا عنك وأخرى تتخذ من واقعك

الذي تشكل جزءاً منه مسرحا لأحداثها وتفاعل شخصياتها كرواية " **من أكواخ القنادسة إلى أبراج نيويورك**"

هذه الرّواية التي يستفزك عنصر المكان فيها من أولى عتباتها ممثلة في صورة الغلاف، وصولا إلى نهايتها، فاختيار عنصر المكان لم يكن اعتباطا بل كان لدوافع قوية منها : تضمّن الرّواية حضوراً روائياً قوياً لعنصر المكان، إذ جعل الكاتب منه ركيزة هامة في بنائه الفني، لما له من أثر بالغ في تطوير الحدث، وفي بلورة القيم الفكرية والجمالية، ومن هنا كاد المكان في الخطاب، أن يمثل شخصية متكاملة بكل أبعادها وتأثيرها في السياق الروائي العام.

أولا: دلالة المكان من خلال الغلاف

تشكل الرواية الحديثة من ألفها إلى يائها معينا دلاليا لا ينقضي، مهما تعددت آليات البحث والاستقصاء ضمنه، نظرا لتشعب الدلالة خلف جميع مكونات هذا الصرح اللغوي، فبعد أن كانت الدلالة ثاوية بين دفتي الرواية، هاهي ذي تخرج إلى الغلاف بفعل التطور الحاصل في آليات القراءة، لتجعل منه لبنة دلالية تُستكمل بها القراءة، إذ "غالبا ما تشخِّص الصورة الغلافية الخارجية القصد العام للمؤلف، وتختزل دلالات النّص ومضامين العمل المعطى، وتستقصي مقاصدهما الذاتية والموضوعية، بعد تتبع مقاطع وفقرات ونصوص العمل المدروس، فالعلاقة بين الصورة والعمل علاقة توافقية مباشرة أو رمزية أو موحية"[4] خصوصا في العصر الحالي أين استبدت الصورة بعنصر الدلالة بفعل التطور الحاصل في المجال التكنولوجي.

يطالعنا الغلاف في رواية فزيوي لحبيب الموسومة بـ: **من أكواخ القنادسة إلى أبراج نيويورك** كوعاء دلالي بارز من خلال استغراق صورة المكان لجميع صفحته، بحيث تكتسح صورة مدينة نيويورك وفي مقدمتها برجي التجارة العالميين جميع مساحة الغلاف، ثم تتوسطها صورة مصغرة لمعقل جماعة طالبان بجبال تورابورا الأفغانية، ثم صورة أكثر صغرا عن طريق القمر الاصطناعي لمدينة نيويورك مرة أخرى.

إنّ استغراق هذه الأماكن لكامل صفحة الغلاف يحيل إلى مدى أهمية هذا المشكل الفني في بناء معمار هذه الرواية، باعتباره جوهر العمل و أساسه في تحريك الأحداث وتنوعها، مما يتيح للقارئ نظرة استشرافية في تعامله مع النّص، "فالصورة البصرية بمختلف أنماطها ومستوياتها صارت الوسيلة المفضلة بل والمهيمنة في أشكال التعبير والتواصل و طرائق إقناع الآخر،"[5] ثم إن

تقديم مدينة نيويورك بهذا الحجم الكاسح، تليها منطقة تورابورا الأفغانية يتضمن دلالات متعددة: كالانبهار بهذا الزخم الحضاري الذي يشهد عليه الشكل العمراني المميز لهذه المدينة، مما جعل صورة توربورا تبدو متواضعة أمامها، أو لأن نيويورك كانت مسرح الحدث الأعظم في الرّواية والواقع العالمي وتورابورا مجرد محطة لشحذ الهمم على مسن التطرف، فكان من غير المنصف أن يتساوى المكانين في مساحة صورة الغلاف .كما يمكن أن يشير مضمون الغلاف إلى التراتبية التي اعتمدها السرد في تصنيف مواطن الشر، فكانت نيويورك ومن ورائها أمريكا وجه السلبية الأكثر ظهورا، تليه تورابورا و من ورائها أفغانستان في شكل اقل ضررا وترويعا، " فترتيب واختيار مواقع الإشارات بما فيها الصور ضمن الغلاف لابد أن تكون له دلالة جمالية أو قيمية "[6] من شأنها تشكل مفتاحا من مفاتيح المقاربة الفعالة، ثم إنّ موقع صورة تورابورا في حضن صورة نيويورك لربّما يحيل إلى مدى السيطرة والاستحواذ الأمريكيين على الدول المغمورة، بحيث تمنحنا صورة مصغرة للعالم الغربي وعلاقته بالعالم الشرقي، ثم نأتي الآن إلى صورة نيويورك المصغرة عبر القمر الاصطناعي فهل يحيل هذا الحجم المصغّر إلى شيء ؟!

إن الأحداث التي شهدتها نيويورك يوم 11 سبتمبر 2001 كسرت الأسطورة الأمريكية التي لا تقهر وقَزّمَتْ صورتها في نظر الكثير وهذا ما يعكسه تقديم الكاتب لها في صورة أخرى مصغرة وكأنه يستعرض صور أمريكا في أعين العالم على اختلافها بين معظم ومصغر بعد الأحداث المذكورة سلفا، ثم أين هي مدينة القنادسة من كل هذا وذاك؟ ألم تستحوذ على معظم أجزاء الرّواية كوعاء لأحداثها ؟! فلمَ تم تجاوزها في الغلاف دون العنوان ؟!! أم تراه جلاّها حين تغافلها إذ الأشياء بأضدادها تعرف انطلاقا من مفهوم البياض والسواد في الكتابة الأدبية،"إذ أنّ بروز المنعدم الأبيض فيها أي الكتابة تبرره عوامل نفسية أو دينية أو سياسية أو ثقافية، فقد لا يُصرَح ببعض التعابير لتبقى مجهولة أمام القارئ، إنها إفرازات النّص الحداثي الذي عمل على أن يقدّم للقارئ نصا جريئا يحتفي بعلامتي الوجود والعدم،"[7] وعلى هذا يكون للوجود دلالاته، كما للعدم، حيث يمكن أن يحيل هذا التغييب المكاني ضمن صورة الغلاف إلى رد الفعل الحانق على هذا الوعاء المكاني الذي لا يبدو السّرد محتفيا به عبر صفحاته من خلال مستوى الرفض الذي تضمنته مختلف المشاهد الروائية، نتيجة ما تخلله من مظاهر التخلف والجهل، أو قد يكون المقام

نأى بِغُزَيَّةَ أن ترد صورتها كأيقونة مرافقة لأيقونتي صناعة الموت في العالم، أمريكا وأفغانستان فتُحال الدّلالة على غير مقصديتها.

ثانيا: دلالة المكان من خلال العنوان

تشكل مقاربة النصوص رحلة متشعبة المسالك، كثيرا ما يفضي السير فيها من غير استرشاد إلى مجانبة المسلك الصحيح، فتحال الدلالة خلاف ما وضعت له، مما يجعل من خط النهاية مطلبا يستحيل الوصول إليه، وعليه يصبح الاسترشاد بعتبة كعتبة العنوان أمراً هاما من شأنه أن يقوِّمَ المسلك، ويوضح السبيل، "إذ يمكن عدّهُ من أهم العتبات النّصية الموازية المحيطة بالنّص الرئيس، حيث يساهم في توضيح دلالات النّص، واستكشاف معانيه الظاهرة والخفية إن فهما وإن تفسيرا، وإن تفكيكا وإن تركيبا. ومن ثم فالعنوان هو المفتاح الضروري لسبر أغوار النّص، والتعمق في شعابه التائهة، والسفر في دهاليزه الممتدة"[8] من خلال ذلك الانطباع الأولي الذي تستحضره القراءة الواعية لفك الرموز المبهمة التي قد يَعْرَضُ لها السرد عبر تشعّباته الفنية، فعلى هذا الأساس يعد "اختيار العناوين عملية لا تخلو من قصدية كيفما كان الوضع الأجناسي للنّص، إنها قصديّة تنفي معيار الاعتباطية في اختيار التّسمية"[9] على اعتبار أنّها أهم المحطات الدلالية، فالعنوان (من أكواخ القنادسة إلى أبراج نيويورك) يسلمنا أولى مفاتيح نصه حين يجاهر بدلالته اللّغوية المرتكزة على عنصر المكان دون غيره فجاء ذكر "أكواخ القنادسة" مسبوقا بحرف الجرّ (مِن) الذي يعني ابتداء الغاية تليها أبراج نيويورك مسبوقة هي الأخرى بحرف الجر (إلى) و الّذي يعني انتهاء الغاية كاشفا بذلك عن فضاء الرّواية ومسرح أحداثها في كل كلمة منه فـ : (مِنْ) مكان والكوخ مكان والقنادسة مكان و(إلى) مكان والبرج مكان و نيويورك مكان مما يمنح القارئ إمكانية التصور شارعا في وضع الفرضيات وطرح التساؤلات : عن دور هذه الأمكنة، وما الخيط الرابط بينها؟ وهل هي رحلة من البداوة إلى الحضارة ؟ أم من الفقر إلى الغنى؟ ثم لماذا كان مسار الرحلة من القنادسة إلى نيويورك تحديدا ؟!! ما السبب .... ؟!! ما الدافع .... ؟!! إلى غير ذلك من الأسئلة التي تتوارد تباعا إلى ذهن القارئ، وتقوّي من خلال عنصر التشويق رغبته في الحفر ضمن زوايا النص المختلفة، بحثا عن الدلالات الثاوية ضمن تلابيب مختلف التراكيب اللغوية.

لقد استطاع السرد أن يحقق للعنوان وظائفه المختلفة من خلال ارتكازه على عنصر المكان في اختيار التسمية حيث اشتغل على الثنائيات بالجمع بين النقيضين الكوخ/ البرج ، القنادسة / نيويورك، فكان بذلك أيقونة دلالية توحي بأن الرّواية رحلة من مكان إلى مكان يختلف عنه في جميع أبعاده وحيثياته، من حالة إلى حالة، من فكر إلى فكر آخر من نظم وعادات وطقوس إلى أخرى لا تمت لها بصلة، ليحقق العنوان وظيفته الإغوائية "كونه يُحدِث تشويقا وانتظارا لدى المتلقي فيدخله في عملية القراءة والتّأويل بدافع التّحفيز و الإثارة "[10] إذن من الواضح جدا أن اعتماد العنصر المكاني في جميع كلمات العنوان لم يأت اعتباطا بل قصد إليه الكاتب لِما له من شانٍ في توجيه مسار الأحداث وتنوعها فكان بذلك دِين الرّواية وديْدنها الذي لا تقوم إلا به، ولو اختار الكاتب أيّ مشكل فني سواه لفقد العنوان شيئا من بريقه وجاذبيته التي تجعل منه أيقونة مثلى في الدّلالة على صورة من صور القراءة الممكنة، كأنْ يتضمن اسم الشّخصية على نحو(حياة رقية أو رحلة رقية ...)

ثالثا: أنواع الأمكنة

يزداد عالم الرّواية شساعة كلما قام على الاختلاف والتوافق، ويرجع ذلك أساسا إلى مكوناته فكما أنّ للشخصية اختلافها وللأزمنة تعددها كذلك للأمكنة تنوعها، "والتنوع المكاني هو تقصّد من طرف المؤلف، بغية فتح عالم الرّواية على الحرية والفاعلية في مجريات الحدث، وكذا اللّعب على خطوط الزمن الثلاثة بهدف كسر صورة المكان الجامدة وتحويلها لصورة معبّرة تتجاوز إطارها الجغرافي[11].

و لما كان المقام لا يسمح ببسط جميع أنواع الأمكنة على اختلاف دلالاتها تم التركيز على المكانين الرمزي والنفسي لِما لهما من حضور ضمن هذا النّص.

1- المكان النفسي

يشكل العامل النفسي معيارا هاما من معايير الحكم على الأمكنة، فقد يتفق اثنان على تطابق صورة المكان الواحد في الواقع، غير أنّهما يختلفان في الهالة الشعورية التي تحيط به،"فالمكان يأخذ اكتماله من مشاعر الشخصية وحالتها النّفسية، ليتحول إلى مكان جديد إنّه المكان المصوَّر من خلجات النفس وتجلياتها وما يحيط بها من أحداث،"[12] وهذا ما شمل العديد من أمكنة

الرّواية، إذ أضفى الكاتب عليها مشاعر وأحاسيس مختلفة كالحزن والخوف والفرح والحنق وغيرها ...الخ.

ومن بين الأماكن ذات الدلالات النفسية كذلك:

أ– المدينة :

تعتبر المدينة أكثر الأمكنة حضورا في الرواية الحديثة، لما يوفره ديكورها ومجتمعها من مواد حكائية، يستثمرها السرد في بنائه الفني، "إذ غالبا ما يرتبط مفهومها بالحياة الدؤوب المفعمة بالحركة والصخب وحرية الفعل وإمكانية التنقل وسعة الاطلاع وغيرها،"[13] غير أن هذا الوصف لا تستشعره شخوص الرّواية في مطلق الأحوال بسبب طبيعة الشخصية ذات البعد الشرقي وما تحمله في خلدها من مشاعر الكره والحقد جراء الممارسات السلبية للغرب تجاه ما تمثله، مما صيَّر مدينة نيويورك على الرغم من بهرجها الحضاري و حركتها الدؤوب جحيما يستفز الشخصية الروائية لا لتغادره فحسب، بل تسعى لتدميره، ويتضح ذلك من خلال المقطعين المواليين، أين جاء الشعور بالمكان تبعا للعامل النفسي الشعوري المتولد عن أيديولوجية الشخصية.

« وصلنا بلاد الشيطان الأكبر، والمارد الجبار... بلاد الأهوال والأغوال، بلاد الثعابين صاحبة الرؤوس المتعددة...» .

« من هذه البلاد — يا رقية – تنبجس عيون الضلالة الدهماء و تتدفق ألوان الشرور العمياء ..... فما لو أن الله مَنَّ علينا بشهادة فوق ثراها.....[14]»

ترسم الشخصية من خلال منطوقها صورة شديدة السواد للمكان، حيث لم يسعفها الواقع في رسم أبعاد المكان بما يتلاءم وشعورها، فانكبت على الخيال تستعير منه أبشع ما فيه للتعبير عن هذا المكان بما يتوافق وبعدها النفسي، في حين جسدت البطلة المفهوم التقليدي المذكور سلفا للمدينة من خلال وصفها لمدينة وهران على الرغم من تواضع طابعا المدني إذا ما قيست بمدينة نيويورك « أمَّا أن تكون هذه المدينة التي لا نهاية لشوارعها، كما لا نهاية لبحرها، هذه المدينة العملاقة ذات العمارات الشاهقة والمحلات التجارية الواسعة... بمرور الأيام دخلت معمعة حياة الصخب والحركة والهرج اغتنمت الفرصة و تعلمت فن الخياطة كما قررت أن أدخل عالم القراءة والكتابة الذي حرمتني طقوس القرية وحواجزها من ولوجه كوني أنثى.[15]»

ومرة أخرى يطالعنا العامل النفسي في تحديد مفهوم الاتساع والانحصار المكاني، فها هي ذي البطلة في المقطع المذكور سلفا تصف وهران وبحرها باللانهاية، وهي الوافدة من الصحراء أين تتجسد اللانهاية الفعلية للمكان، فلقد ضاقت بها الصحراء على رحابتها لأنها قيدتها بفعل العادات والتقاليد في حين اتسعت لها المدينة على الرغم من انحصار أمكنتها، بفعل الشعور بالحرية."فالمكان الروائي يتجاوز الحدود الجغرافية والفيزيائية، ليكون مكاناً خيالياً وإن كان موجوداً على أرض الواقع، حيث يتخذ أبعاداً عميقة من خلال ارتباطه بعناصر العمل الروائيّ، لذلك تتعدى صورة المكان باعتباره رابطاً جغرافياً بين الشخصيات ليتخذ ملامح نفسية من خلال علاقته بالشخصية الروائية"[16] على النحو الذي مر بنا من خلال المقاطع السابقة.

ب– القنادسة :

لقد عودت الرّواية قارئها رصد بعض الحميمية في جانب من جوانبها اتجاه المنطقة – خاصة الريف منها – تزداد حدتها كلما اتجهنا صوب البيت، غير أنّ غاية السرد هنا غيّبت هذا الشعور، بتركيزه على بسط الواقع المرير الملفوف بالتناقضات والاختلالات مما غطى على الحس الحميمي، حيث أغرق السرد في تتبع مناطق الظل وافتضاحها حتى غدا المكان مسرحا للا منطق وتردي الأحوال.

ج– السوق :

السوق في العرف العام مكان شعبي مرتبط بالاتجار والتبادل، وملتقى الحضر بأهل البوادي، فهو حلقة وصل بين الجوارات ومصدر الأخبار، مما جعل منه موردا دلاليا هاما وأداة فنية تم من خلالها الكشف عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية السائدة، كشيوع الدجل والشعوذة مجسدة في حلقات الفرجة التي يديرها بعض الانتهازيين بالارتكاز على استخفاف عقول العامة والاستيلاء على أموالهم عن طريق القصص الخرافية المرتبطة بالجانب الروحي والعقدي، مما يشير إلى الطبيعة المجتمعية السائدة آنذاك، والموسومة بهشاشة التفكير وقابلية الانقياد للغير: « إنها علامة الساعة الكبرى .... و لو شئت لأخبرتكم باليوم تحديدا، ولكنه من العلم الذي حضيت به دون غيري...[17]»

كما يتجلي من خلال توظيف السوق معاناة المرأة ضمن المجتمعات الريفية من خلال الحصار والعزلة المضروبة عليها، إذ يعتبر السوق مكانا محرما على النساء : « لم يكن للمرأة الحق

في غشيان الأسواق أو حتى الاقتراب منها، وما ينبغي لها، فهي محرمة وفقا لناموس العادة والأعراف» [18]

ج– الجبل :

لطالما كان الجبل أيقونة للتحرر والانعتاق، فقد كان عرين الثورة التحريرية ومعقلها الحصين غير أن توظيفه هاهنا نوّع دلالته وعددها بتعدد الشخصيات وأيديولوجياتهم فهو معقل للشر وأيقونة للرعب في أعين العامة وحصن منيع للمتطرفين سرعان ما يتحول إلى جحيم حين تتبدل أفكارهم وأيديولوجياتهم. حيث جاء في المقطع: « هي ذي ساعة الرحيل تدق – رقية – وها قد جاء الفرج بعد طول انتظار سأطير بعيدا عن هذه الجبال والأدغال سأنظم إلى تنظيم جهادي يحارب أعداء الإسلام لا أبناء الإسلام» [19] ، تستعجل الشخصية في هذا المقطع رحيلها عن الجبل، حيث صار بمثابة الجحيم بعد أن كان ملاذا آمناً لها، مما يترجم ارتباط المكان بالهالة الشعورية للشخصية، حيث ما إن تبدلت أيديولوجيتها حين أدركت جرم أفعالها بوصفها إرهابيا، حتى تغيرت دلالة المكان (الجبل) وأضحى جحيما لا يطاق.

د– غرفة العلاج

لقد أسهم هذا المكان بشكل جلي في كشف المفارقات و أوجه النفاق الاجتماعي ، إذ بفضله نمى وعي البطلة من خلال اصطدامها بالحقيقة المرة، بعد سقوط الأقنعة عن وجه أبيها وصديقه الذي يدعي التدين، لتدرك زيف المظاهر وخداعها فيزداد بذلك الشرخ عمقا بينها وبين واقع الريف وعاداته، فيستحيل المكان الذي عرفته وهي حدث صغير على أنّه ملاذ الناس وملجؤهم من قهر الأمراض إلى مكان للرذيلة و هتك أعراض الغير: « خرجتُ من الغرفة البغيضة متسللة كما دخلت، دخلت حجرتي، .....ثم غصت في بحار متلاطمة من الأفكار: هل سأعلن لوالدتي عن حقيقة مهنة والدي، هل سأكشف للملأ عن صورته الأصيلة....»

« هذا إذن أنت يا والدي، ها قد تجلت شخصيتك الحقيقية عارية، كأبشع ما خلق الله... ما كنت أحسبك صغيرا إلى هذه الدرجة حقيرا إلى هذه المنزلة.»

« و أنت أيها الرجل الورع... يا من تسعى في الصلح وفك النزاع خارجيا، وفي اللعب بأعراض الرجال و انتهاك حرمة زوجاتهم داخليا.[20]»

لقد شكل المكان بوصفه غرفة للعلاج علامة فارقة في حياة الشخصية البطلة، فاقتحامها السري له، وتجسسها من خلاله على ممارسات أبيها، وصديقه أسهم في تغيير كثير من المفاهيم لديها، بما في ذلك نظرتها لمن كانت قبل قليل تكن لهم أسمى مشاعر الاحترام.

2– المكان الرمزي

المكان كما البشر، يكتسي أهمية من خلال طبيعة العلاقة بينه وبين البشر، حيث كثيرا ما تصيّره طبيعة هذه العلاقة حين تكتسي طابعا خاصا، – مع مرور الزمن – أيقونة ورمزا تختزل اللغة من خلاله كثيرا من معاني الدلالة التي يمكن استثمارها ضمن المجال الفني، ،فالمكان الرمزي"هو أحد الأمكنة التي يوظفها الكاتب بغية الإحالة إلى أمكنة ومعان أخرى والقصد من ذلك ترك كثافات إيحائية في النّص، كمحاولة منه لإعطاء أكثر من صورة للمكان الواحد[21].

أ– المقبرة :

وهي أُولى الأماكن استقبالا وآخرها توديعا، تستقبلنا الرّواية بها وتغادرنا منها ويتجلى ذلك من خلال المقاطع التالية :

« إلى المقبرة ــ أماه ــ إلى سكان دار الحق حيث تذوب الشكوك و الأهواء ..... [22]» ثم جاء في آخر الرّواية: « تسورت حائط المقبرة، الأجداث منتصبة و مبثوثة في كل مكان، لقد تضاعف عددهم، شجرة الطلح العاتية لا تزال واقفة في مكانها كالمارد الجبار... ربطتُ الحبل في غصن متين من أغصانها، وضعت حلقته في رقبتي، ثم ألقيت بجسدي من فوقها... نفسي الأخير انقطع...[23]»

إنّ اعتماد السرد على مكان المقبرة بدء وانتهاء، باعتبارها رمزا للموت، يحيل إلى مدى السخط المتنامي بسبب تردى الأوضاع وانقلاب الموازين ضمن الوضع المعيشي لسكان المنطقة بسبب تسلط الجهلة واستخفافهم بعقول الناس ليسهل اقتيادهم وتوجيههم حسب أهوائهم الشخصية ونزواتهم إضافة إلى تفشي طقوس الدجل والشعوذة وتراكم الآفات الاجتماعية كالمخدرات والفقر والتزويج التعسفي والمبكر للبنات والأمراض التنفسية التي أودت بخيرة الرجال إلى الفناء جراء العمل في المناجم مصدر الرزق الوحيد بالمنطقة كل ذالك أحالها مقبرة للأموات الأحياء فجعل الحياة في هكذا ظروف أشبه برحلة من الموت إلى الموت، ولا أدَلَ على ذلك من الكلمة التي اختُتم بها النّص : « أيها القابعون بين صفائح الأجداث، السابحون في لجج الأوهام

الغارقون في فوضى الأحلام: الانفجار الكوني الثاني وقع، وحمّى الفتق سرت في كل كيان، فمتى تبعثون من قبوركم متى ...؟!! [24]»

ب- الكوخ و البرج :

"إن الكوخ باعتباره جزءاً من تركيبة اجتماعية نفسية يحمل خصائص كثيرة جدا منها الهشاشة وسرعة التلف فتركيبة سكانه النفسية الاجتماعية قلقة مهددة باستمرار بالموت والمجاعة وقلة العمل وبالتالي النزوع إلى كثرة التنقل والترحال"[25]، كما أن قوته من قوة أكواخ الجوار التي تسنده، فهو يحاكي بذلك صفات مشيّده، بهشاشة تفكيره ورضوخه لسلطة الجماعة والعرف، في حين ينتصب البرج شامخا في رفعة أساسها الصلابة والقوة يناطح عنان السماء في فردانية صارخة، لا تؤمن بسلطة غير سلطتها، في إيماءة للإنسان الغربي المحصن بالفكر ومتطلبات التطور الممجّد للفردانية وقوة الذات، وعلى هذا الأساس يرفض المكان الاكتفاء بكونه وعاء لأحداث الرّواية ومسرحا لتفاعل شخصياتها حين يؤدي دوره الدلالي بفاعلية من خلال كشف الهوة السحيقة بين الأنا والآخر، بتلبّسه لصفات شخوصه من حيث التركيبةُ الاجتماعية والنفسية، ثم من خلال تكريسه للأيديولوجية المتبناة النزّاعة إلى بناء الذات وتحطيم الآخر، حيث تجسّد ذلك حين طَوَتْ الرّواية آخر صفحاتها، والبرج قاعا صفصفا على الرغم من صلابته، في حين بقي الكوخ صامدا يصارع الزمن على الرغم من هشاشته.

خاتمة:

تبعا لما سبق تبقى هندسة المكان في السرد عموما من أكثر العناصر الفنية حساسية أثناء إرسائها ضمن النص السردي، كونها تخفي في تلابيبها أكثر من مفهوم، وأكثر من دلالة، لارتباطها بما هو موجود أو متخيل، فهي سرعان ما تتجاوز دورها التقليدي المقتصر على البعد الجغرافي الذي يوفر مسرحا للحدث، إلى دلالات أوسع تشمل أبعادا رمزية وأيديولوجية تسهم في بناء النص الروائي، كما أن أهميتها لا يمكن أن تحصر في مكان دون الآخر، لأن دورها يتداخل فيما بينها، وهو ما يؤكد أن الرواية لا يمكنها أن تُبنى على مكان منفر، لأن مجموع الأمكنة هو ما يعطيها تفاعلها وحركيتها التي تسهم في تناسق بنائها الفني.

هوامش:

1- ينظر: مدحت الجيار وجماعة من الباحثين، جماليات المكان، دار النشر عيون، ط2، 1988، ص: 22.

2- ياسين النّصير، الرّواية والمكان، دار الحرية للطباعة، بغداد، ص: 17.

3- المرجع نفسه، ص: 17.

4- جميل حمداوي، شعرية النّص الموازي (عتبات النّص الأدبي)، دار نشر المعرفة، طبعة 2014، ص: 122.

5- يوسف الإدريسي، عتبات النّص (بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر) منشورات مقاربات، الطبعة الأولى 2008، ص: 55.

6- جميل حمداوي، شعرية النّص الموازي، ص: 116.

7- ينظر: رقية بوغنوط، شعرية النّصوص الموازية في دواوين عبد الله حمادي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة قسنطينة، ص: 17.

8- جميل حمداوي، شعرية النّص الموازي، ص: 49.

9- عبد الفتاح الحجمري، عتبات النّص (البنية والدلالة) منشورات الرابطة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996، ص: 19.

10- ينظر: عبد الحق بلعابد، عتبات (جيرار جينيت من النّص إلى المناص) منشورات الاختلاف الطبعة، الأولى، 2008،ص: 88.

11- سعدية بن يحي، دلالة المكان في رواية عابر سرير، مذكرة لنيل شهادة الماجستير جامعة الجزائر ، 2008/2007، ص: 12.

12- ينظر: المرجع نفسه، ص: 14.

13- ياسين النّصير، الرّواية والمكان، ص: 114.

14- حبيب فزيوي، رواية من أكواخ القنادسة إلى أبراج نيويورك، دار الغرب للنشر والتوزيع ص: 131 و132.

15- المرجع نفسه، ص: 97.

16- عوض مها حسن يوسف، المكان في الرواية الفلسطينية (1948-1988)، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1991، ص: 332.

17- حبيب فزيوي، رواية من أكواخ القنادسة إلى أبراج نيويورك ، ص: 42.

18- المصدر نفسه، ص: 35.

19- المصدر نفسه، ص: 121.

20- المصدر نفسه، ص: 75-76 .

21- شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرّواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان الأردن، الطبعة الأولى، 1994، ص: 15.

22- حبيب فزيوي، رواية من أكواخ القنادسة إلى أبراج نيويورك، ص: 12.

23- المصدر نفسه ص: 140.

24- المصدر نفسه ص: 142.

25- ياسين النّصير، الرّواية والمكان، ص :72.